صورتان متضادتان لنبي الإسلام ورسالته (صلى الله عليه وسلم) في الشرق والغرب

صلاح الدين محمد شمس الدين ومت طيب فا ومحمد بن سمن ومحمد زكي بن عبد الرحمن من أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية ولغات الشرق الأوسط، كلية اللغات واللسانيات، جامعة مالايا، ماليزيا

١- خلفية تاريخية عن الموضوع

ففي الآونة الأخيرة ظهرت في الغرب صورة لنبي الإسلام ورسالته، أثارت ضجة كبيرة مليئة بالألم والأسى والغضب وأعمال العنف على الشوارع في جميع أنحاء الأرض من مشارقها إلى مغاربها، تمثل وجود الغيرة الحقيقية والعاطفة الصادقة في قلوب المسلمين لدين الله الحق ونبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، وكل ما شوهد من مشاهد وأحداث يدل على وجود شيء غير مألوف في هذه الصورة، وهذا أمر طبيعي، لأنها صورة غربية تنطق بالإنجليزية، وليست صورة شرقية، لأنها لا تنطق بالعربية، وذلك على الرغم من أن شخصية صاحب الصورة الأصلية كانت عربية لحما ودما، عاشت عربية، ولم تنطق الإنجليزية قط، حتى لحقت بالرفيق الأعلى.

فالأمر الأول: هو إن وجود هذا الشيء الغريب في الصورة إن دل على شيء دل على أن هناك تمثيل غير واقعي لصاحب الصورة، لأن الصورة العربية الأصلية لصاحبها هي ثابتة عند أهلها، التي تكذب هذه الصورة الغربية المزيفة، وتكشف وجود تزوير كامل وتمثيل مجزى ومزيف لحقائقها الثابتة عند أهلها. كما تبين هدفا معينا لهذه الصورة المزيفة، وهو كامن في لغتها الإنجليزية،

يعني أنها تخاطب الناطقين بالإنجليزية في العالم الغربي خاصة. وهنا نجد عدة أسئلة جوهرية تفرض نفسها؟ لماذا اختارت هذه الصورة المشاهدين الناطقين بالإنجليزية في الغرب فقط؟ هل هناك خوف من أهاليها في الشرق المسلم بأنهم يكذيونها باعتبار أنهم يعرفون صاحب الصورة الأصلية أكثر من غيرهم؟ ولا حاجة عندهم للتعريف بصاحب الصورة، لأن صورته المشرقة وسيرته الطاهرة وسنته الحميدة واضحة تماما، وهي مدونة في كتب الصحاح. ومعنى ذلك أن هناك كانت حاجة إلى توضيح الصورة لنبي الإسلام لهؤلاء الذين لا يعرفونه، لأن الأمر لو لم يكن كذلك، حدث تحصيل حاصل، وفقدان الهدف من وراء هذه الصورة الكاذبة. وهذا أمر ثابت لا محالة. إن اللغة الإنجليزية التي تنطق بها هذه الصورة هي التي تدل على وجود اختلاف بين الصورتين الأصلية والمزيفة لصاحب الصورة من جهة، كما تبين أن هناك سبب معين لهذه التصرفات المجنونة للمصور من جهة أخرى.

والأمر الثاني: نلاحظ في هذه الصورة أن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يمارس الحرية الجنسية، ولكننا نرى أن دول الشرق المسلم، حيث توجد أغلبية متبعيه، ليست فيها الإباحية الجنسية، وإنما هذه الإباحية موجودة في دول الغرب، وليس في الشرق. فما هذا التضاد؟

فهل الناس في الغرب يتبعون سيرته في ممارسة الحرية الجنسية؟ فهل هؤلاء محمديون؟ وأليس المسلمون في الشرق محمديين؟

وإذا كان الإسلام الذي جاء به محمد دين ممارسة الجنسية، فهل هؤلاء في الغرب مسلمون؟ والذين يتبعون دينه في الشرق ليسوا مسلمين حقيقيين؟

يبدو أن الهدف وراء هذا الفيلم ليس هو البحث في الإباحية الجنسية في الإسلام، ولا في متبعيه، وإنما هناك شيء آخر، ألا وهو أن الإسلام بدأ ينتشر في الغرب بصورة مذهلة اليوم، والهدف من وراء هذه المحاولات اليائسة ليس هو الشرق المسلم، وإنما هو الوعى الغربي، وذلك لتعطيله وتضليله عن البحث والتحقيق والتفكير الجاد، وإبعاده عن الحق والعدل. كما تبين أن هناك خلل ونوع من الضعف والعجز في الهوية المادية للعبقرية الغربية عن مواجهة الحق في الحياة الروحية، وذلك رغم أن الغرب يعتبر نفسه صاحب السلطة العليا، والقوة القاهرة (الإله) في حياته المادية لهذه الدنيا الدنيئة. والشعور بفقدان التوازن بين الحياة الروحية والمادية دفعه إلى ارتكاب مثل هذه الجرائم البشعة ضد البشرية، وضد محسن الإنسانية جمعاء. حتى لا يتعرف الجماهير في الغرب على الهوية الأصلية ذات السيرة الحميدة لصاحب الصورة، ولا يطلع على سر سحر الجمال في رسالته ليقبل دين الله الحق ويؤمن بكتابه الذي جاء به، ليهدي الناس كافة بالهدى والفرقان.

ولعل العالم لم ينس أن مسئولا كبيرا لكنيسة في أمريكا، اعتزم قبل سنة بأن يحرق نسخة من القرآن الكريم، ونسي أن هذا الكتاب الخالد كتاب روحي والروح لا تموت أبدا.

ولنوضح الأبعاد الخطيرة من حيث الغاية المستهدفة لهذه الصورة الغربية المزيفة أكثر، علينا أن ندرس طبيعة هذا العصر، وحاجة الغرب إلى مثل هذه الصورة في مثل هذا العصر.

فإن هذا العصر (عصر العولمة) قد بدأ بنهاية الشيوعية في قلعتها: (الاتحاد السوفييتى) ثم بنهاية حلف (وارسو) من صفحة الوجود، وبقاء الحلف الأطلسي

كقوة عسكرية عظمى من بين القوتين العظيمتين في العالم. وبعد انفصام عرى الاتحاد السوفيتي السابق لم يبق للحلف الأطلسي عدوا سوى الإسلام، لأن الإسلام –في نظره– هو وحده قادر على أن يقف في طريق فرض سيطرة هذا الحلف، وقبضته الحديدية على العالم كله، وخاصة الدول الإفريقية، ودول الشرق الأوسط والأدنى من آسيا.

ولاريب أن النظام العالمي قد اختل بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وأصبحت دول العالم الثالث الضعيفة ذات السيادة في العالم في الخطر، لأن النوايا الاستعمارية للحلف الأطلسى – المتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية المتحالفة باعتبارها القوة العظمى في العالم– كانت ولاتزال واضحة في بسط سيطرتها للاستيلاء على الدول النامية الصغيرة –دول العالم الثالث– وبالتالى بدأت تشعر الدول الإسلامية بأنها وقعت فرائس في كماشة استعمار الغزو الفكري مرة أخرى. فالولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول الغربية المتحالفة معها، خاصة بريطانيا وألمانيا وهولندا وفرنسا تتحارب الآن مع الإسلام في كل مكان، وذلك لفرض نظام مادي عالمي جديد يعرف باسم العولمة: Globalization. وكان من المعلوم أن الدول الإسلامية لن تستسلم بسهولة، ويمكن أن تصمد وتقف ضد سياسات الغرب العدوانية لحماية الدول والشعوب الضعيفة. فكانت الوسيلة الوحيدة استخدام القوة ضد الحق والعدل، والقهر الدعائي والإعلامي، والغزو الفكري ضد الإسلام وكتابه الكريم، ونبيه العربي– صلى الله عليه وسلم– عن طريق استئجارعقول بعض المسلمين الذين باعوا ضمائرهم بثمن رخيص، لينشروا على ألسنتهم أفكارا تمهد لقبول الانسلاخ من الإسلام أو لتكون جماعات المسلمين الفقراء والبؤساء فرائس لمحاولات التنصير المخططة، كما يحدث في إندونيسيا أكبر دولة إسلامية من

حيث عدد المسلمين فيها. فتصاعد في الفترة الأخيرة الهجوم على الإسلام، والافتراء عليه في حملات إعلامية وثقافية متتابعة، تكيل التهم ضده، وتشوه مقاصده العظيمة، ومبادئه الإنسانية، وتطعن في كتابه الكريم، وتسئ إلى حامل رسالته نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وتعبث بسيرته وسنته الشريفة العطرة، وتشوه دعوته لتنفير الناس منها، وصرفهم عن الإسلام، الذي اختاره الله سبحانه وتعالى دينا خاتما للناس: (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا.) (١)، (وما أرسلناك إلا رحمة للناس) (٢) وقد تمادى هؤلاء في محاولة يائسة لصرف المسلمين عن القرآن الكريم بخاصة، فأكثروا الافتراء على سوره وآياته، وتجنوا على الكثير من أحكامه، وقدموا تفسيرات ظالمة مغايرة لمقاصده، وزادت جرأة أهل الباطل بافتراء كتاب جديد للمسلمين سموه (الفرقان الحق) ألفته إحدى اللجان المتخصصة في عداء الإسلام والمسلمين، من اثنى عشر جزءا، ليكون -حسب زعمهم- بديلا عن القرآن الكريم، وكتابا مقدسا للمسلمين في عصر العولمة.

والحرب الدائرة بين الشرق والغرب الآن هي ليست أصلا بين الإسلام والديانات الأخرى: اليهودية والنصرانية في العالم، وإنما هي شنت من أجل بسط السيطرة والنفوذ، فهي ضد كل دين، وهي الحرب بين روحانية الشرق: (الديانات) وعلمانية العولمة (مادية الغرب). وإنها شنت ضد الإسلام خاصة، لأن الإسلام هو الذي يستطيع أن يواجه هذه العاصفة للاستعمار الغربى المادي، وسياساته العدوانية ضد الدول والشعوب الضعيفة في الوقت الحاضر.

يجب ألا ننسى أن الصليبيين قد استفادوا بعد تحقيق أهدافهم من الحضارة الإسلامية في كثير من المجالات التي ساعدت على تقدم الحضارة في

أوربا، ولذا كانت الحضارة الإسلامية سببا في اهتمام أوربا بالعالم الإسلامي وإقبالهم على دراسة لغات الشعوب الإسلامية والاهتمام بتراثها الإسلامي.

وحين طغت العربية على اللاتينية في إسبانيا، وكثر اعتناق النصارى بالإسلام ازداد الإقبال على دراسة الثقافة الإسلامية لاستخراج الكنوز الثقافية للاستعانة بحضارة المسلمين على إقامة حضارة أوروبية. وكان غرضهم الآخر من العناية بدراسة التراث الإسلامي مهاجمة الإسلام، وصرف الأنظار عنه، لأنهم وجدوا ما فيه من قوة وسحر صرفا النصارى عن دراسة لغتهم وثقافتهم. (صلاح الدين محمد شمس الدين: الأدب المقارن، مطبعة سولو، جاكرتا، ٢٠٠٥م، ص: ١٥٨)

ويبدو من هذا أن سلسلة الحملات العدائية ضد الإسلام قد بدأت في الماضي بدراسة الثقافة الإسلامية من قبل الكنائس المسيحية أولا، ثم من قبل المستشرقين في الغرب، وذلك لاستكشاف السحر والجمال في هذا الدين، اللذين كانا سببين لاعتناق النصارى بالدين الإسلامي في الغرب أو لاستخراج الكنوز الثقافية لتأسيس حضارتهم أو لإعداد علماء مبشرين يستخدمون معارفهم ضد هذا الدين الإسلامي من أجل التنصير في الشرق. وهذه السلسلة لم تتوقف حتى الآن، ولكن الهدف قد تغير الآن، ليس الهدف هو معرفة الدين، وإنما الهدف هو الهجوم ضد كل دين، وذلك على الرغم من أن الدين الإسلامي هو الهدف اليوم، ولكنني أرى أن الديانات الأخرى ستواجه غدا ما يواجهه الإسلام اليوم من النظام المادي في الغرب.

فقد سبق صدور كتاب (الآيات الشيطانية) لسلمان رشدي، وكتاب آخر عن دار نشر (كريكيت صونغ) في الولايات المتحدة الأمريكية قبل سنين،

عنوانه :(محمد رسول الهلاك: عقيدة الإسلام الإرهابية وفقا لكلمات محمد نفسه) ألف هذا الكتاب شخص اسمه (كريغ وين) بهدف الإساءة إلى الإسلام والمسلمين جميعا، هذا الكتاب يمثل ذروة العداء المتزايد ضد الدين الإسلامي الحنيف في بعض الأوساط المسيحية الأمريكية المتعصبة. وذكر المؤلف في كتابه بعض كتب المراجع العربية مثل كتاب السيرة لابن إسحاق، والصحيح للبخاري، وتاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى، وتظاهر بذكر بعض الآيات الكريمة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة بأنه درس (عقيدة الإسلام ورسالته). وباستخدام بعض النصوص منها، واستنتاج بعض الجزئيات الخاطئة منها، وصف الإسلام بكل النقائص منها: الشر والزيف والإرهاب والسرقة وسفك الدماء والخداع والتلفيق، حتى وصف الإله المعبود الذي هو وحده لا شريك له، جدير بأن يعبد، بصفات لا تليق شأنه جل جلاله.

ثم ظهر هذا النوع من الفيلم الوهمي الذي يقيس عادات وتقاليد المجتمع الجاهلي الغارق في ظلام الجاهلية القائمة على الزواج بدون حصر بعادات المجتمعات البشرية القائمة على نورانية العلم في الشرق والغرب.

فيجب ألا نلتفت إلى الرد على مثل هذه التصرفات المجنونة، ولا نستخدم العنف ضدها، وإنما يجب أن نبين الخلفية التاريخية لهذه العداوة بين روحانية الشرق المسلم ومادية الغرب الملحد. وذلك لتنوير فكر الإنسان الغربي بالتوجيهات المستنيرة من العلم والعرفان.

وأما ما ذكر (كريغ وين) في كتابه المشار إليه من مراجع عربية، فبذكر هذه الأسماء للكتب العربية لا يستطيع المؤلف أن يخدع أهل العلم بأنه قد درسها حقا، لأنهم يعلمون جيدا ما بداخل هذه الكتب القيمة، لأن

المسلمين – وغير المسلمين أيضا– يعلمون جيدا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نزل من (حراء) من جبال مكة بتنـــزيل من حكيم حميد، وجاء بهذه النسخة من الكيمياء للإصلاح في شئون حياة الأمم المختلة، وهذا الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، فوق كل الشبهات في آياته البينات، و لم يحدث فيه أي تغيير ولا تبديل ولا تحريف طوال هذه القرون التي خلت من تاريخ الإسلام المشرق.

في الواقع إنه لم يدرس هذه الكتب العربية الإسلامية التي أشار إليها على وجه الإطلاق، وإنما درس ما كتبه المستشرقون المتعصبون عن الإسلام والنبي العربي (صلى الله عليه وسلم) والقرآن الكريم باللغات الأجنبية سابقا، كما أنه لم يدرسها بالعربية، ولا يستبعد أنه درس بعض هذه الموضوعات من الإسلام المترجم في الغرب، الذي ترجم حسب أهواء المترجمين الموالي للغرب، ومعلوم أن الترجمة – مهما كانت أمينة و دقيقة – غدر وخيانة للأصل المترجم عنه في مجال البحث والتحقيق. وقد يكون لمن يشك أو بالأحرى لليهود والنصارى أو لغير المسلمين أن يوجه الطعن في صحة نسبة هذا الكتاب (القرآن المجيد) إلى الله سبحانه وتعالى. ولكنه إذا أراد أن يدرس عقيدة الإسلام ورسالة نبيه صلى الله عليه وسلم، فعليه أن يرجع إلى هذا الكتاب ليطالع تلك الموضوعات التي يريد أن يبحث فيها. وإذا كان الباحث من غير المسلمين، فعليه أن يفرق بين اعتقاداته واعتقادات المسلمين، فإن أراد أن يبحث في عقيدة المسلمين فعليه أن يبحث في ضوء معتقداتهم، لا في ضوء توهماته هو.

فنحن نجد هذه الظاهرة عند المستشرقين عامة وفي جميع الموضوعات التي يتناولونها بالبحث والدراسة، فهؤلاء لا يدرسون الإسلام من وجهة نظر المسلمين، وإنما يستخدمون نظارة العداء السوداء للإسلام والمسلمين أولا، ثم

يدرسون، ويعرضون وجهات نظرهم كأنها وجهات نظر المسلمين، ثم يستنبطون استنتاجات جزئية خاطئة. وهذا هو سبب وجود اختلاف بين الصورتين الأصلية في الشرق والمزيفة في الغرب.

ثم إن هؤلاء يعتمدون على القرآن الكريم وحده في إثبات دعاويهم الباطلة أو إنكار الحقائق الثابتة، وهم لا يؤمنون به بوصفهم مسيحيين. فكيف يعتمدون على مرجع لا يثقون بصحته؟

وكذلك الأمر في الروايات المدونة في كتب الأحاديث النبوية من الصحاح الستة، أنهم يعتمدون عليها لعرض دعاويهم الباطلة فحسب، وهم لا يؤمنون بصدقها، ولا يصدقون رواتها. فكيف يفرضون على القراء تسليم ما ليس مسلما عندهم.

ولذلك يظن الكاتب (وين) أن الهجوم على الإسلام بلسان كتب السيرة لعلماء المسلمين هو أفضل طريقة لتضليل المسلمين وإبعادهم عن دينهم، ولذلك استخدم أسماء بعض المصادر والمراجع، مثل: كتاب السيرة لابن إسحاق، وتاريخ الطبري، وصحيح البخاري ليثق المسلمون بما يقوله الكاتب الضال (وين) في بحثه المضل.

وهنا السؤال، مادام لم يقرأ المؤلف (وين) كتاب ابن إسحاق ولا تاريخ الطبري، لماذا اختار شخصية هذين الرجلين العظيمين على وجه التحديد، رغم أن هناك مئات من الكتب في السيرة النبوية، وتاريخ الإسلام كتبها كثير من المفكرين المسلمين والمستشرقين أيضا؟ ولماذا لم يعتمد على كتب أساتذته المستشرقين؟ فهنا يظهر الخبث في نيئته بشكل واضح. وأنه في

الواقع درس آراء المستشرقين، ولكنه لا يريد أن يعترف بهذه الحقيقة أمام المسلمين، لأن الهدف من تأليف هذا الكتاب المضل هو أن يقرأ المسلمون كتابه هذا، وهو يعلم تماما أن المسلمين لا يسمعون كلام المستشرقين أبدا، لأن آراءهم في الاسلام ورسالته معلومة، وهي تلك التي دحضها علماء المسلمين بالبراهين القاطعة حين ظهورها كل مرة.

ثم يجب أن لا ننسى من كان ابن إسحاق؟ وما هي أهمية كتابه في (السيرة النبوية) فشخصيته جديرة بأن تدرس، وكذلك شخصية ابن جرير الطبري أيضا جديرة بأن تدرس لمعرفة سبب اختيار المؤلف هاتين الشخصيتين دون غيرهما من المؤرخين وأصحاب كتب السير بالتحديد.

٢- اهتمام المستشرقين بابن إسحاق والطبري

اهتم المستشرقون بكتاب ابن إسحاق باعتباره أول مرجع في السيرة، ثم باعتباره أنه هو الذي كشف أوراق أحبار اليهود، وكشف عن إسلام عبد الله بن سلام، ومخيريق اللذين كانا من علماء اليهود، وكانا يعرفان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفاته التي بشرت بها التوراة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "مخيريق خير يهود" وذلك حين أخبر ابن إسحاق أن طائفة من أحبار اليهود شهدت لنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، كما ذكر أيضا أن طائفة من علماء النصارى قدموا مكة وسمعوا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصدقوه بما قال". فشخصية ابن إسحاق لها في كتابه جاذبية لليهود والنصارى، ولكنهم لا يستطيعون تكذيب كل ما جاء به ابن إسحاق من وثائق في شأن إسلام أحبار اليهود والبشارة بالنبي (صلى الله عليه وسلم) في الإنجيل. فقد وردت صفاته –عليه أفضل الصلاة والسلام– التي عرفها من

علماء النصارى وفد نجران وغيرهم ممن لم يحجبهم عن رؤية الحق تعصب ذميم أو تقليد أعمى أو هوى متبع.(٣)

وكذلك شخصية أبي جعفر بن جرير الطبري المحدث، الفقية والمؤرخ المعروف الذي اشتهر بكتابيه: (تاريخ الأمم والملوك) الذي يعتبر من أهم المراجع في التاريخ الإسلامي، و(جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ولد بطبرستان سنة ٤٢٢ هـ، وطاف بالعراق والشام ومصر، كان رحمه الله كثير الحفظ، مستوعبا لعلوم القرآن واللغة، عارفا بأيام الناس وأخبارهم، وجمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل زمانه. وقد مات ببغداد سنة ٣١٠ هـ بعد أن ظل أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة.(٤)

ولماذا لا تكون جاذبية عند المستشرقين في شخصية الإمام أبو جعفر الطبري الذي تناول شهادة أهل الكتاب لنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وفسر الآية: (الذين آتيناهم الكتاب) بالتوراة والإنجيل، و(يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) بأن اليهود والنصارى يعرفون أن محمدا نبي مبعوث كما يعرفون أبناءهم. (٥) فالمستشرقون من اليهود والنصارى يهتمون بدراسة أقواله في تفسير الآيات القرآنية، وخاصة ما يتعلق منها باليهود والنصارى وبكتبهم المحرفة.

والموضوعات التي تناولها المؤلف (وين) في كتابه الضخيم (في أكثر من سبعمائة صفحة) يبدو من دراستها أنها فوق طاقته، ولا شك أنه لم يؤلف هذا الكتاب إلا باستعانة بعض الباحثين المسلمين أو المتخصصين المغرضين الذين باعوا ضمائرهم بثمن رخيص، فهذا لا يهمنا هنا سوى أن هذه الموضوعات لم تدرس منهجيا، لأن كل موضوع منها يحتاج إلى دراسة

موضوعية وعلمية دقيقة، وصفحات الكتاب خالية من هذا النوع من الدراسة المنهجية. ولذلك نراه يعرض عن الحق، ويصر على الباطل، وهذه خيانة علمية، فإذا درس ترجمة هذه الكتب العربية، أو درسها في لغته الأصلية، وهى العربية المجيدة – كما يدعى– فما الذي دفعه ليلجأ إلى كتمان الحقائق العلمية؟ وكل من له الإلمام بتاريخ الإسلام يعلم جيدا أن الإسلام يواجه مثل هذه التحديات منذ البداية. وهذه هي العادة عند المستشرقين عامة، أنهم يتناولون موضوعات شتى في مقال واحد بدون دراسة دقيقة، ويتظاهرون بعبقريتهم العلمية في بيئتهم، رغم أنها دائما تكون سطحية خالية من الدراسة الموضوعية والمنهجية، وتكون بعيدة عن الأمانة العلمية التي يثق بها القارئ، والتي يجب أن ننظر إليها بعين الاعتبار في مجال البحوث العلمية.

وأما ما ظهر من مشاهد وهمية في هذا الفيلم الاستعراضي المزيف في الآونة الأخيرة، فهي عبارة عن تلك المحاولات المتواصلة الفاشلة للنيل من القيم الإسلامية السامية التي نسمع صداها حينا بعد حين، وهي تلك النغمات الاستعمارية القديمة التي يعاد استخدام أسطواناتها من قبل المستعمرين المحتلين الذين احتلوا ولا تزال في قلوبهم نوايا استعمار الدول العربية والإسلامية في الشرق، والذين نسمع من ألسنتهم دروس حقوق الإنسان المزيفة والمساواة المزدوجة والعدالة المنحازة والديموقراطية الفوضوية من منابر هيئة الأمم المتحدة، وهم في الواقع يمتصون دماء الأبرياء وينهشون لحوم الشعوب الضعيفة في جميع أنحاء العالم أي في المشارق والمغارب، إنهم يتجاهلون القوانين الدولية، ومحاولاتهم مستمرة لإبادة البشرية وخاصة الشعوب الضعيفة التي تبكي دما من جرائمهم البشعة المروعة التي أنهكت الشرق المسلم كله. وهم يعلمون من هو

الإرهابى الأكبر؟ ولكن ظاهرهم يختلف عن باطنهم حين يقولون إن الإرهاب نابع من الدين الإسلامى يعنى القرآن الكريم.

كما لا نجد في هذا الكتاب سوى هذه الكلمات المهملة: أن الإسلام هو الإرهاب ومحمد إرهابي والمسلمون كلهم إرهابيون، والجهاد هو الإرهاب، فهذا الدين باطل. هذه الكلمات ليست أكثر من هذيان شخص، وراءها هو الخوف والفزع الدفين في قلوب المستعمرين من كلمة الجهاد، حقا إن الجهاد في الإسلام حق مشروع، وهو حقا عبارة عن الحرب ضد الأشرار والمفسدين في الأرض، والمقاتلة مع أصحاب الشرائع المحرفة الباطلة. هم يخوفون الناس من كلمة الجهاد، مع أن الناس يعلمون تماما أن الجهاد ليس لقتل الأبرياء من غير حق.

إن الإسلام دين تأليف القلوب وألفة النفوس وليس ليخدع الناس ويسلب ممتلكاتهم، ويستعبد النساء والأطفال، ويرتكب جرائم القتل والإبادة والتعذيب كما يتوهم المؤلف (وين) وكما ترتكبها الدول القوية.

ويتبين أن النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) محسن الإنسانية جمعاء، أرسله الله رحمة للعالمين، وبعثه ليتمم مكارم الأخلاق، أنه ليس رسول الهلاك كما يتوهم المؤلف (وين).

٣- الجهاد الإسلامى أو الحرب المقدسة

ويحسن بنا أن نذكر هنا خلفية موجزة عن حقيقة **الجهاد المشروع** عند المسلمين و المستعمرين. الجهاد المشروع وارد في الحديث النبوي. ومحاربة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المطهرة من قبل المستشرقين باعتبارها مصدرا

مهما في التشريع الإسلامي ليس أمرا غريبا، إذ بإبعاد السنة النبوية والتشكيك في مكانتها في التشريع يصبح التلاعب بالقرآن الكريم أمرا ميسورا.

فقام الاستعمار من جهة باستخدام طبقة من المرتزقة من منكري الأحاديث النبوية، وهذه الطبقة أنكرت في البداية أحاديث الجهاد بالسيف، ثم أنكرت السنة النبوية بكاملها.

إن الجهاد معناه: الكفاح من أجل الحرية والحق، والبقاء بالأصالة، والعيش بالكرامة. هذا اللفظ مشتق من الجهد، وهو الكفاح من أجل الحياة والحرية، وإذا استخدمت كلمة (الجهاد بالسيف) فمعناها (حمل السلاح ضد الظلم لاسترداد الحقوق المغصوبة أو شن الحرب لحماية حقوق الشعوب الضعيفة، وإنقاذها من سطوة الأقوياء. لأن الله خلقنا أحرارا، فكل إنسان له حق أن يعيش بحريته ويتنفس في مجتمع تكون فيه الحرية مكفولة للجميع، لأن الحرية حق كل إنسان بالطبع. ولا يمكن أن يحرم أحد من ممارسة هذا الحق، كما أنه لا يستطيع المرؤ أن يعيش من غيره، لأن الموت أهون من عبودية الغير، ولأن الحرية هى الوجود، لا وجود لسواها، والدنيا عبارة عن الظالم والمظلوم منذ البداية، ولذلك وضعت المجتمعات البشرية نظاما للمحاكم، لرفع التظلم وإقامة العدالة، وذلك بعد أن عاشت قرونا طويلة في الحروب، ومعلوم كم قرون مضت والإنسانية بدأت تتأدب وتتثقف، ورغم ذلك المجتمعات البشرية المعاصرة لا تخلو من وجود ظالم ومظلوم، لأن الإنسان القوي بطبعه يظلم الضعيف.

كما يقول الشاعر:

الظلم من شيم النفوس، فإن تجد *** ذا عفـــة، فلعـــلة لا يظلم

أو كما يقول شاعر آخر:

فمن لم يزد عن حوضه بسلاحه *** يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

حتى نحن نرى في تكوين مجتمعنا المتحضر أيضا هذه العناصر الاجتماعية الثلاثة: الظالم والمظلوم ثم المحاكم. والأمم والشعوب الإسلامية تسمى الحرب ضد الظلم بالجهاد المقدس، التي تشن من أجل استراد حقوق الناس الضعفاء المظلومين، ومن أجل حقوق الإنسان في العيش بالكرامة وبالحرية، فلا يوجد فرق أصلا بين الحرب ضد الإرهاب (أو الإسلام) من موقع القوة، والجهاد المقدس للنجاة من سطوة الأقوياء الظالمين من موقع الضعف. والفرق بينهما معنوي، لأن الحرب من موقع القوة، لها علاقة بالمادة، والجهاد يمثل الروح المعنوية لحياة الشعوب الضعيفة، فالمادة تنتهى، وإنما الروح تبقى.

فقد أصدر أحد الباحثين الأمريكيين في العلوم السياسية منذ فترة قصيرة كتابا تحدث فيه عن مفهوم **الجهاد في القرآن والإسلام**. نرى فيه أنه يعتبر أن العنف الذي يمزق حاليا عدداً كبيراً من المجتمعات الإسلامية ليس عن أزمات داخلية حادة فحسب، وإنما يعبر أيضاً عن رد فعل هذه المجتمعات ضد ظاهرة العولمة التي تحمل في طياتها الهيمنة الغربية. ويرى أن الاحتجاجات العنيفة ضد هذه الظاهرة ليست محصورة بالمجتمعات الإسلامية، وإنما هى مشتركة لدى جميع المجتمعات البشرية بما فيها المجتمعات الغربية. إنه رد فعل ضد القوى

العمياء والكاسحة للعولمة. المقصود بالعولمة هنا: اقتصاد السوق، وهيمنة النظام المالى والمصرفي على العالم كله، وهيمنة التكنولوجيا الحديثة، ووسائل الإعلام الضخمة، والتلاعبات بنظام الصبغات (الهويات) الوراثية للإنسان ... إلخ، إنه رد فعل ضد العنف البنيوى أو المفصلى الذي تبثه في جميع أنحاء العالم قوى غير مرئية، وغير مسؤلة، قوى تتخذ القرار من وراء الستار وتحرك العالم بواسطة الأزرار.

إن الشعوب المستلبة ترد على هذا العنف البنيوى غير المرئى بعنف جسدى قاتل ومرير. وترفضه رفضاً قاطعاً باسم القيم الدينية التقليدية التي لا تتورع عن استخدام أدوات الحداثة التكنولوجية من أجل بث دعاياتها. إن الجهاد الإسلامى من جهة، وظاهرة العولمة الغربية من جهة أخرى، يجيشان في طياتهما الكثير من المشاعر اللاعقلانية الهائجة والخلط الفكرى والمعنوى. وهذه الأشياء تتطلب دراسة دقيقة، لأنها لم تحلل بعد بالشكل الكافي. صحيح أن موازين القوى ليست متكافئة، وإنما مختلة تماماً لصالح القوى الغربية، ولكنهما يؤديان إلى النتيجة نفسها تقريباً.

وهنا ينبغى أن نعيد النظر أيضا في الأطروحة التي دافع عنها المؤرخ البلجيكى (هنرى بيرين) في الثلاثينيات من هذا القرن. ونلاحظ أن هذه الأطروحة قد عادت إلى الساحة من جديد مع ظهور الصدام الحالى بين الإسلام والغرب. من المعلوم إن هذا المؤرخ كان قد تحدث عن حصول كسر دائم في حوض المتوسط بدءاً من ظهور الإسلام الأولى في هذا الحوض، لقد حصل تشقق أو صدع حقيقى بسبب هذا الظهور وذاك التوسع. وعندما نقول (صدع) فإننا نقصد العنف، وبالتالى إرادة في القوة والهيمنة. فالعنف مرتبط

بالقوة. وإرادة القوة يدعمها أو يبررها الجهاد (كحرب مقدسة) في الأوساط الدينية، كما تبررها الحرب العادلة أو الشرعية في الأوساط العلمانية. ولكن من يتحدث عن الجهاد بالمعنى الديني يتحدث أيضا عن اللاهوت ورهانات المعنى. هكذا تتمفصل إرادة القوة مع رهانات المعنى في كلمة الجهاد. وبالتالى فالجهاد يحتوى على كلا الجانبين: المعنى والقوة.

لا ريب في أن الإسلام والمسيحية معنيان أكثر من غيرهما من الأديان التي لاتزال حية بمسألة الحرب المقدسة أو الجهاد. لماذا؟ لأنهما انتشرا في شتى أنحاء العالم أكثر من غيرهما (أكثر من اليهودية مثلا بكثير). ولكن من وجهة نظر الأنتربولوجيا الاجتماعية والثقافية، فإنه لا يمكننا أن نحصر مفهوم الحرب المقدسة في الدائرة الدينية وحدها. فهى موجودة أيضا في الدائرة العلمانية. ولكنهم يتوهمون أنهم يتحاشون التلوينات الدينية، إذ يغيرون المصطلح فيتحدثون عن الحرب العادلة أو الشرعية بدلاً من الحرب المقدسة أو الجهاد. (٦)

ولذلك نرى أن أصوات الجهاد ترتفع دائما من الإرادات القوية للشعوب، وعزائمها الجبارة وإيمانها الراسخ بالعدالة الإلهية، كما ارتفعت في الماضى من الشعوب الإسلامية بعد أن انهكتها تصرفات الظالمين الأقوياء المجنونة وأعمالهم التدميرية الموجهة ضدها. والحرب ضد الإرهاب هي أصلا شنت ضد الضعفاء العزل من المسلمين العرب وغيرهم من منبع القوة والتظاهر بامتلاك أسلحة فتاكة وتكنولوجيا حديثة. فيجب أن لا تخاف هذه الدول القوية التي تنادى بالعولمة لفرض نظام اقتصادى، ومادى، وسياسى موحد على دول العالم لصالحها، والتي تتظاهر بعضلاتها العسكرية القوية ضد جهاد المجاهدين

الضعفاء، ولكن الظالم القوي الذي يظلم الضعيف المظلوم يعي بشعوره الداخلي ما هو الحق؟ وما هو الباطل؟ ثم المغير الذي يحتل أراضي الغير من الشعوب الضعيفة بالقوة، هو لا يستطيع أن يتنفس بالاطمئنان، لأنه يشعر بخطورة إمكانية المواجهة مع شعوب هذه الأراضي المحتلة، بل كأنه يسمع أجراس الخطر كل لحظة، ويعتبره وشيك الحدوث. والظالم القوي يعلم هذه الحقيقة أيضا ماذا سيحدث إذا وقعت المعركة بينهما؟ من الذي يخسر وينهزم؟ ومن الذي يكسب المعركة وينتصر؟ ويعلم أيضا أن حساب النصرة والهزيمة يكون دائما إذا كانت قوى الفريقين المتعاركين متساوية، ولكن إذا كان أحدهما قويا غالبا، والآخر مغلوبا ومقهورا، فلا يمكن تصور الانتصار في المعركة للقوي الغالب، لأنه غالب من الأول، ثم إن الغالب القوي يستطيع بقوته الهائلة تدمير قوة عدوه الضعيف المظلوم بالكامل، إلا أنه يعلم أنه لا يستطيع أن يقهر العزائم الجبارة والإرادة القوية لتلك الدول الضعيفة وشعوبها المنهارة، لأن العزيمة الجبارة والإرادة القوية للشعوب أمر معنوي، لا تقهر أبدا، وهي لا تتزعزع أبدا، والحروب تنتهي، ولكن نار الغضب والثأر والانتقام والكراهية في قلوب الأجيال القادمة للشعوب المظلومة لا تخمد أبدا، وإنما تبقي شعلة دفينة في رماد جثث أمجادها، وتشعل منها الأجيال اللاحقة مشاعلها للثورة العارمة ضد الظالمين، وهي تؤمن بأن المعركة لا تحسب بالزمن في تاريخ الشعوب، وهي لا تنسى أسماء أبطالها الشهداء، وتعتقد بأن الموت بالكرامة أهون من الحياة في عبودية الظالمين الغاصبين، وهي تؤمن بأنهم أحياء عند ربهم، فهي تقاتل العدو جيلا بعد جيل من أجل استرداد حقوق أمجادها. وهذا هو ما يسمى الجهاد عند المسلمين، ولذلك ترتعش عضلات الظالمين الأقوياء باسم الجهاد المقدس. والتاريخ خير شاهد على أن المسلمين دائما كانوا في القلة،

كما هو الحال الآن، ولكنهم حملوا رأية الجهاد المقدس لاسترداد حقوق الشعوب الضعيفة، من القتلة والمجرمين الظالمين، وكانت المواجهة بين العدد القليل من المسلمين المستضعفين والعدد الكثير للغالبين، ولكن الله سبحانه وتعالى كتب الفوز والنصرة دائما في حق المسلمين، إن الشعوب الإسلامية تؤمن بأن الموت والحياة في يد الله سبحانه وتعالى، وإذا استشهد أحد في سبيل استراد حقوق أفراد أمته، فهو لن يموت أبدا، وله أجر عظيم عند الله يوم يقوم الحساب، فلا يخاف المؤمن وهو في برائن الموت. وعلى عكس ذلك الشعوب الغربية فصلت الدين من نظام حياتها السياسي والاجتماعى، وبدأت تعتمد على نظرة مادية بحتة وأهملت التنـــزيل الإلهي، والنتيجة هي أن الطبيعة غلبت على التعاليم والثقافة المجردة من التنـــزيل، وأصبح الإنسان للإنسان ذئبا ضارا، ولذلك نرى محمد إقبال ينوه هذا الوضع بقوله: "إذا انفصلت السياسة من الدين لبقيت سياسة جنكيز خان وهلاكو خان الدموية".

واتهم المؤلف بأن محمد (صلى الله عليه وسلم) مارس الجنس بدون تمييز. وهذا افتراء وبهتان عظيم. لأن نبينا صلى الله عليه وسلم كان ذا حسب ونسب في قومه، والمؤلف لا يعلم ما هي أهمية قرابة الحسب عند العرب، وكذلك لايعلم أن بالإفراط في الاعتزاز بقرابة الدم أو الحسب والغيرة الشديدة جرت عادة وأد البنات عند العرب في الجاهلية. ونبينا (صلى الله عليه وسلم) هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي. فأبوه عبد الله من أسرة بني هاشم القوية في مكة، وأمه آمنة بنت وهب من خيار نساء قريش، قد اشتهر بعظمة أجداده في الجاهلية بالسيادة، أو بالتجارة الرابحة في مكة: فقصى هو الذي يرجع اليه الفضل في استيطان قريش مكة بعد أن قادها في حرب ناجحة ضد خزاعة، (٧) وهاشم هو أول من سن الرحلتين

لقريش وهما (رحلة الشتاء والصيف) وعبد المطلب هو الذي شرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه، فأعاد حفر بئر زمزم بعد أن طمست، وكان يستقي منها الحجاج الوافدون على مكة. والنبي (صلى الله عليه وسلم) فقد أباه وهو في بطن أمه آمنة وفقد أمه بعد ذلك بقليل، فعاش يتيما بعدهما في رعاية جده عبد المطلب، ثم عمه أبي طالب، وكلاهما أغدق عليه من عطفه وحنانه، وما أن شب طفلا حتى اشتغل راعيا للأغنام عند عشيرة بني سعد مثلما فعل معظم الأنبياء قبله، وقد خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في التجارة، وشهد معه إحدى وقائع البدو المشهورة بحرب (الفجار) لوقوعها في الأشهر المحرمة عند عرب الجاهلية.

وبعد ذلك تزوج من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي أيضا كانت امرأة عظيمة الشأن، وذات حسب ونسب، وشرف ومال، وذلك على الرغم من أنها كانت تكبره سنا، بقي معها، فلم ينكح عليها امرأة حتى وفاتها، وهذا يدل على أنه (صلى الله عليه وسلم) كان زوجا كريما وفيا مخلصا لزوجته، وخاصة في تلك البيئة التي تعودت تعدد الزوجات. (٨)

وهكذا قضى النبي (صلى الله عليه وسلم) فترة حياته الأولى منـــزها عن المذمومات (٩) فلم يشترك في عبادة الأصنام، وشب والله يعصمه ويحفظه من سيرة الجاهلية، لما يريد من كرامة الرسالة، كما حبب إليه الخلوة، فكان يقضي شهرا كل سنة يتحنث عن الدين القويم بالتأمل والخلوة في غار (حراء) من جبال مكة وربما كان يستخدم هذا اللفظ للبحث عن بقايا دين إبراهيم عليه السلام. وكان يعرف بالصادق بأخلاقه الفاضلة وتصرفاته الصريحة، حتى اشتهر بين عشيرته وأهله وسموه (بالأمين) لاستقامته وكمال خلقه. فأين هذه

الوثائق التاريخية و أين كلام هذا المؤلف المفتري، فإنه إذا لم يدرس هذه الحقائق التاريخية في تلك الكتب التي أشار إليها وهو يدعى بأنه درسها كذبا وافتراء، فعليه أن يرجع إلى أساتذته من المستشرقين وخاصة (كارل بروكلمان) صاحب كتاب (تاريخ الأدب العربي) أو غيره ليسمع منهم بالتفصيل ما ذكرناه باختصار شديد عن خير الخلق كله (صلى الله عليه وسلم). فما ذكره المؤلف من رذائل هى ليست أبدا من صفات ذلك الشخص الذي كان يعرف بخير الخلق كله، وبصفاته الفاضلة وخصائله الحميدة، والذي كان معروفا بالصادق الأمين (صلى الله عليه وسلم) في عشيرته ومجتمعه، فيجب أن يحاسب المؤلف على هذا البهتان في المحاكم الدولية، لأنه بشنيعه هذا خالف ما اتفقت عليه جميع كتب السير والوثائق التاريخية الموثوق بها عند علماء المسلمين والمستشرقين، وذلك بهدف تجريح مشاعر المسلمين في العالم.

وأما ما ذكره المؤلف (أن محمدا كان منحرفا جنسيا بدون حدود) وتظاهر بأنه وجد هذا الكلام وفقا للنصوص الإسلامية التي أشار إليها، ويدعى أنه درسها، فهذا غير صحيح، وإنما في الواقع إنه ردد كلام الحداد في كتابه (المسيح في القرآن) بشيء من المبالغة، يقول الحداد في تحد وصفاقة:

"لم يبن المسيح مثل غيره منازل لأزواجه قرب المسجد، حتى يختلف كل ليلة إلى واحدة منهن بعد صلاة العشاء، بل كان يقضي ليلته في الصلاة إلى الله لم يكن ليغزو ولا ليقرع بين نسائه، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه، كأنه لا يقدر أن يستغنى عن المرأة حتى في معامع الحروب".

ثم حين يعرض الحداد كلام الأستاذ عباس محمود العقاد يرسمه بما لم يقله منطوقا ومفهوما، فيقول: "المسيح وحده ارتفع فوق حاجة الرجل إلى

حواء، فعاش بتولا ورفع بتولا. وفي هذا ما فيه من الكمال الذي انفرد به، وليس ذلك من نوع التقصير الجنسي كما يغمز الأستاذ العقاد حيث قال: قال لنا بعض المستشرقين: إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية. قلنا: إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية، لأنه لم يتزوج قط، فينبغى ألاتصف محمدا بأنه مفرط الجنسية، لأنه جمع بين تسع نساء". (١٠)

وهذا المؤلف الأمريكي المتهوس كيف وجد الجرأة لينظر إلى الإسلام والمجتمع الإسلامي العفيف بهذا المنظار الجنسي، وهو يعيش في أمريكا، حيث تمارس الجنسية بكل ألوانها وأشكالها، حيث يوجد قانون خاص بعقد النكاح بين رجل ورجل. ومن الذي لا يعلم كم عدد هؤلاء البابواهات ومسؤلي الكناس الكبار الذين يعيشون الآن داخل السجون الأمريكية بممارساتهم الجنسية مع الأطفال الصغار، أو كما تدل الأخبار الموثوق بها على أن الآباء يمارسون الفحشاء مع بناتهم، والأمهات مع أبنائهن في بعض الأسر. ونشرت مجلة (نيوز ويك): (News Week) (١١) تقريرا تحت عنوان: (وباء خفي): (Hidden Epidemic) جاء فيه: "في شرق فرنسا، وفي روما، وألمانيا الغربية اكتشفت حالات لآباء يمارسون علاقات جنسية مع بناتهم. وقال (أرنستو كافو) Ernesto Caffo وهو أحد المتخصصين في الطب النفسى للأطفال: إنه يعرف أبا يعتدى على بناته الستة، ويفخر بقوته، وفي روما اكتشفت حالة أب يغتصب ابنته الطفلة بينما أمها تمسك بها أرضا"، وليس ما قدمناه إلا بعض الأمثلة للانحرافات والشذوذ والفحشاء الشائعة في المجتمعات الغربية، (١٢) التي تعتبر ظاهرة عامة للمجتمع الغربي المريض جنسيا. وهذا باختصار، ولا نريد أن نطيل الكلام أكثر من هذا لأن المجتمع الإسلامي نظيف، ويحب النظافة، فيه حرية مكفولة للجميع، ولكنها ليست مطلقة بدون حدود كما نرى في الدول

الغربية التي لاتعتبر هذه الانحرافات الجنسية انحرافات، وإنما تسمي نفسها دولة ذات إباحية جنسية.

٤- تعدد الزوجات في الإسلام

ثم تعدد الزوجات في الإسلام لم يكن، ولن يكون لإشباع الغريزة العمياء، وإنما هو ضرورة لاستقامة موازين النظام الاجتماعي في الإسلام، فإذا وجد عدد النساء أكثر من الرجال، والنساء يواجهن الفقر والبؤس ولا يوجد من يقف جنبها في الشدة، فماذا يحدث في المجتمع، بالطبع يواجه المجتمع خللا يتسرب منه الفساد. إذن أفليس الزواج أفضل من أن تحرق المرأة الأرملة نفسها مع جثة زوجها بعد موته، وفاء لحب زوجها الميت كما جرت العادة في المجتمع الهندوسي قديما في الهند، لأن الأرملة التي كانت تفقد زوجها في حياتها كانت تعيش مكروهة ومعذبة، باعتقاد أنها منحوسة، وجودها هو السبب لموت زوجها، فكان الأفضل أن تحرق هي الأخرى نفسها خوفا من العار الاجتماعي. أفليس من الأفضل أن يتحمل الرجال بشهامتهم نفقات تلك الأرامل أو الثيبات نظرا لمكانة المرأة في المجتمع، ولسد الخلل الذي يتوقع أن يتسرب منه الفساد إلى المجتمع. والمجتمعات التي تخاف وتخوف الناس من قضية تعدد الزوجات، هي تغمض عيونها عما يحدث في أوروبا في منتصف ظلام الليل، بل لياليها هي نهار للأبالسة، وكم عدد الجنين يرمي إلى الشوارع، وكم عدد الصغار اليتامى الذين لا يعلمون من هم آبائهم وأمهاتهم، فهؤلاء لايعرفون هويتهم، وليس أمامهم سبيل لمعرفتها، سوى أن كلا من هؤلاء يسمى نفسه (الولد الطبيعى) لأنه لايستطيع أن يسمى نفسه ولدا شرعيا حسب الأعراف الاجتماعية. وكل من له الإلمام بزوجات الرسول الكريم صلى

الله عليه وسلم هو يعلم جيدا كم عدد العذارى منهن، وكم عدد الثيبات. ثم إعلاء رأية الإسلام فوق كل اعتبار، لأن الإسلام دين تأليف القلوب وألفة النفوس. هنا لا يمكن اعتبار تعدد الزوجات انحرافا جنسيا قط، وإنما نحن نسميه دروسا اجتماعية مثالية شريفة، يجب أن تحتذي، وتؤخذ بعين الاعتبار في كل مجتمع. لأن النبي لم يتزوجهن إلا ليجعل منهن معلمات للدين الإسلامي، وليس لإشباع الغريزة العمياء.

٥- الاستعمار الغربي ونواياه

أما الاستعمار الغربي، "فهو اصطلاح حديث، جرينا فيه على ما اصطله عليه الأوربيون في عصور الاستعمار، من تقسيم العالم إلى الشرق والغرب، يعنون بالغرب أنفسهم، ويعنون بالشرق أهالى آسيا وإفريقيا، الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم. و إن كانت الكلمة حديثة اصطلاحا واستعمالا، فهى قديمة في مفهومها ودلالتها. فقد كانت في العالم من زمن قديم قوتان تصطرعان وتتنازعان السيادة إحداهما في الشرق، والأخرى في الغرب، وتمثل ذلك الصراع بين الفرس والروم —كما رأينا- ثم الصراع بين المسلمين والصليبيين، ثم بين العثمانيين والأوربيين، مدا و جزرا، ثم كان آخر فصول هذه الملحمة الصلات بين الشرق ممثلا في آسيا وإفريقيا، وبين الغرب ممثلا في أوربا وأمريكا، وهى صلات متنوعة بعضها ثقافي، وبعضها اقتصادى، وبعضها سياسى، والصلات بين الشرق والغرب التي جرت أحداثها خلال القرنين الأخيرين في جانبها الثقافي، فلها أثرها في الإسلام بصفة خاصة، وهى صلات تميزت عن الصلات الأخرى التي تمت من قبل بطابع معين، يرجع ظروف هذا الاتصال التي تغاير كل ما سبقها من ظروف وملابسات. فقد كان اتصال

الإسلام بغيره من الحضارات والثقافات دائما اتصال الغالب بالمغلوب، أو اتصال الند بالند. أما اتصاله بالغرب في هذه الفترة الأخيرة ، فقد كان اتصال المغلوب بالغالب. لأن الدول الأوروبية كانت قوية بثوراتها الصناعية الحديثة، وبسياستها التوسعية والاستعمارية والتدخلية، وكانت تفهم أن الدول الإسلامية عامة، والخلافة العثمانية خاصة هى العدو الوحيد والعقبة الأساسية في طريقها نحو الأمام، وبذلك كانت تهدف دائما إلى تدمير الخلافة الإسلامية كلية، ومحاولة التغلب على الدول الإسلامية، وكان الأوربيون قد بدأوا يتطلعون إلى الدول الإسلامية، فيسيل لعابهم، ثم تبدأ أنيابهم تنهش هذا الجسد الواهى عضوا عضوا، و إربا إربا، والفرنسيون استولوا على الجزائر، ثم تونس، والمغرب، و روسيا ضمت القوقاز، وإنجلترا سيطرت على الهند، ثم على مصر، و هولندا على إندونيسيا. ومن هنا جاء التفكير في التكتل لصد هذا التيار الأوربى، وفي بث الوعى لتتفتح العيون، وفي الإصلاح الشامل من أحل البقاء.

ونحن نرى ذكر هذه الحوادث في منظومات الشاعر محمد إقبال بكثرة ملحوظة، وساهمت منظوماته تلك في تهيئة الجو الملائم بالقومية الإسلامية مساهمة بارزة، كما قام العلامة شبلى النعمانى بدور عظيم في مجال النهوض بالقومية الإسلامية من خلال منظوماته أشهرها (شهر آشوب إسلام) تناول فيها أوضاع البلاد الإسلامية الغير مستقرة بسبب العدوان والاستعمار والتدخل الأجنبى، وخاصة شعره هذا كان معروفا جدا، و كان على ألسنة الجماهير، معناه:

"إن المغرب (العربي) وفارس (إيران) قد سقطت (في براثن الاستعمار الأجنبى) والآن نحن نفكر في أمر تركيا، وننتظر إلى متى تعيش هذه الدولة

التركية المريضة، التي تحاول أن تقاوم بقوتها المتبقية، و ذلك على الرغم من أن المحاولات الاستعمارية الأوربية مستمرة". (١٣)

ويتضح من هذا الكلام من هو المسئول عن الدمار والخراب الذي لحقت به الدول الإسلامية من المستعمرين الأوربيين المخربين، يجب أن يطالع المؤلف الأمريكى التاريخ الحديث، ليعلم هذه الحقبقة أن عقيدة الإسلام ورسالته رحمة للبشرية جمعاء، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو "رحمة للعالمين".

قال المؤلف: إن التزييف الذي ارتكبه محمد جعل بلايين من المسلمين يعيشون في حالة فقر اجتماعى واقتصادى ودينى وثقافي...

إن الفقر والبؤس الذي نراه في دول العالم الإسلامى ليس سببه هو الإسلام ولا الذي جاء به النبى (صلى الله عليه وسلم) من شرائع وأحكام نافعة. وإنما هو الاستعمار الغربى الغاصب، ثم القائمون بأمور المسلمين في بلادهم، ثم نظام البنوك والمعاملات الإبليسى القائم على الربا، وبهذا النظام نرى يكسب واحد ويخسر الآخرون ملايين من الدولارات في لحظة واحدة.

والحمد لله الذي منح جميع الدول الإسلامية المصادر الطبيعية والأراضى الشاسعة للزراعة، والحدائق والبساتين وحقول الفواكه ينتج منها ما فيه الكفاية من المحاصيل للشعوب الإسلامية، ثم المعادن التي تخبئ في بطنها الثروة المعدنية: الحديد والصلب والنحاس والذهب والفضة والمجوهرات الثمينة، والبحار العميقة المليئة بالثروة السمكية. والدول الإسلامية التي لا تملك

الأراضى الزراعية منحها الله سبحانه وتعالى الآبار البترولية والغازات الطبيعية مثل المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى.

في الواقع أن المؤلف الأمريكى يريد أن يشير إلى أن المجتمع الإسلامى معناه المجتمع الفقير، فنسأله ما علاقة الدين الإسلامى بالفقر والبؤس؟ إن المجتمع الإسلامى ليس فقيرا، ولكنه يتمتع بنعمة الاستغناء، الفقر لا يعتبر عيبا من العيوب الاجتماعية عند المسلمين، والمؤمن الفقير يعتز بفقره، وشأنه في فقره ليس أقل من سلطان.

وحين ندرس الغرب لنرى كيف نشأ وتطور وكيف وصل إلى الذروة في القرن التاسع عشر، نرى أنه قد وصل إلى بداية نهايته، كما يقول الكثير من فلاسفة الغرب الآن: ربما بدأت النهاية، (سبنلر) يتكلم عن انهيار الغرب. (هوسر) يتكلم عن إفلاس الغرب. (توينبى) عن محاكمة الغرب.(فاكسيل) يتكلم عن انقلاب القيم في الغرب. (هوسر) يتكلم عن أزمة العلوم الأوروبية. فكثير من الفلاسفة الآن يقولون إن الغرب أصبح في أزمة كبيرة. ربما نحن نشاهد نهاية العصور الحديثة. أعلن (نيتشه) أن الله قد مات، ويحيى الإنسان. وأعلن (كارل ماركس) أن الإنسان كذلك قد مات. فلا أحد يحيى في الغرب. فالغرب في النهاية. فيمكن أن نستنتج أن ظاهرة اللادينية التي هى شائعة في الغرب، قد تكون من آثار الأمراض النفسية للمجتمع الأوربي الملحد المريض الذي وصل إلى نهايته. وحالة هذا المؤلف الأمريكى قد لاتختلف عن تلك الحالات. وقد تكون حالة المؤلف هذه عبارة عن وجود هيجان في تصرفات الأوساط المسيحية المتعصبة بالإقبال المتزايد على دراسة الإسلام في الغرب، باعتباره علاجا مناسبا لأمراضهم الاجتماعية، وحلا وحيدا لقضاياهم

العصرية، وكتابه هذا قد يكون مجرد محاولة لتخويف الغرب من الاقتراب من هذه الشجرة (الإسلام) المحظورة عند الوجوديين الماديين اليائسين في الغرب.

في الواقع كلام المؤلف ليس صحيحا، بل العكس هو الصحيح. إن الدول الغربية المستعمرة أكلت ما كان في خزائنها المملوءة التي أخذت من مستعمراتها في آسيا وإفريقيا، بعد أن تظاهرت بكل براعة ومهارة وخبرة طويلة في اللصوصية، وأباحت لنفسها أموال تلك السرقات باعتبارها غنائم الاستعمار، عن طريق النهب والسلب، وتلك الخزائن أصبحت خالية الآن، فجاءت مرة أخرى لاحتلال تلك الدول الإسلامية بالقوة، ولكنها تتظاهر بأنها الآن ليست ذلك اللص القديم البارع، وإنما هى تلتزم قوانين منظمة الأمم المتحدة التي خولتها للغزو العسكرى، وتتظاهر بأنها تنقذ الشعوب الإسلامية من براثن الملوكية وكماشة الدكتاتورية للروساء العرب، لأن كل واحد منهم يتظاهر بالديموقراطية، ولكن كل منهم دكتاتور عظيم,، فالدول الكبرى ذات النظام الجمهورى تتظاهر بأنها تساعد شعوب منطقة الشرق الأوسط في الخلاص من هذا النظام الجنكيزى القائم في العالم العربى. إلا أن هذه المساعدة ليست سوى حيلة للاحتلال والاستعمار أو الاستعباد، في الواقع هذه الدول الغربية ما جاءت لتساعد الدول العربية، وإنما جاءت لتستفيد من خيراتها، إنه في الواقع ليس إلا ذلك اللص القديم الذي له خبرة طويلة في اللصوصية، جاء إلينا الآن بهدفه السابق. ولكنه يلبس هذه المرة ملابس الثقافة العصرية. ويبدو من كلام المؤلف أنه يكره كل دين بميوله المادية، وشاعر الإسلام محمد إقبال كان له حق لينوه بأساس الحضارة اللادينية، وبأنها عجنت مع الثورة على الدين، فهى في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق، وأنها عاكفة على عبادة آلهة المادة وتؤس لها معبدا جديدا، يقول:

"ولكن إياك إياك والحضارة اللادينية التي هى صراع دائم مع أهل القلوب (يقصد أصحاب الحق والمعرفة) تجلب مفاتنها، وتقوم بإعادة اللات والعزى إلى الحرم مرة أخرى، إن القلب يعمى بتأثيرها، وإن الروح تموت عطشا في سرابها، إنها تقضى على لوعة القلب، بل تنـــزع القلب من القالب، إنها لص بارع وقديم، لها خبرة في اللصوصية، فتشن الغارات ليلا ونهارا، وصباحا ومساءا وعلنا وجهرا,، إنها لا تدع الإنسان إلا ولا روح فيه، ولا قيمة له. (١٤)

ويرى أن شعار هذه الحضارة هى الغارة على الإنسانية، والفتك بأفراد النوع البشرى، وإن شغلها الدائم التجارة، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء بالحب البرئ النـــزيه والإخلاص لله سبحانه وتعالى، إلا حين تنهار هذه الحضارة الحديثة، فيقول:

"إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببنى آدم، الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها، ليست هذه البنوك إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء، التي انتزعت نور الحق من صدور بنى آدم، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام مالم ينقلب هذا النظام رأسا على عقب". ويقول أيضا:

"لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوريا، ولكن أوربا في الحقيقة بحر الظلمات، ليست فيه عين الحياة، إن مبانى بنوكها تفوق مبانى الكنائس في البناء والتعمير والبهاء والكمال، والإناقة والنظافة، ويبدو أن معاملاتها التجارية تجارة، ولكنها قمار في الحقيقة، يربح فيه واحد ويخسر ملايين من الناس في لحظة واحدة، إن هذا العلم، وتلك الحكمة والسياسة والحكومة التي تتبج بها أوربا هى مظاهر جوفاء (ودعايات كاذبة) ليست وراءها أية حقيقة، إن قادتها

يمتصون دماء الشعوب ويتظاهرون بأنهم يقومون بتدريس الدروس في المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية". (١٥)

"إن البطالة والعرى وشرب الخمر والفقر كل هذه الأشياء متوافرة لدى الحضارة الغربية، فهل هذه كلها من غنائم فتوحاتها وانتصاراتها المدنية قليلة؟ إن الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوى والتنـــزيل الإلهى، وغاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار، إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات وتسيطر فيها الصناعة، تموت فيها القلوب ويقتل فيها الحنان والوفاء ومعانى الإنسانية الكريمة". (١٦)

وفي ختام حديثنا نقول إن الهدف من هذه الأعمال الإجرامية قد اتضح الآن، وهو تضليل الوعي الغربي قبل أن يكون الهدف هو إيذاء المشاعر وجرح العواطف الدينية للشرق المسلم، فلا حاجة إلى استخدام العنف ضد الغرب، والإنسان الغربي المادي بكونه إنسانا جدير بأن نحترمه، وإنما يجب علاج الفساد المتواجد في نظام فكره المادي المريض، وذلك عن طريق شرح الحقائق، وبيان الخلفية التاريخية للكراهية القائمة بين الشرق والغرب، وإزالتها، لأن الآن ليس أي نبي بين أيدينا، فلا مجال للمقارنة بين نبي ونبي. وكل ما ورثناه من أمجادنا هو العقيدة والدعوة إلى العمل الصالح أو الشرائع والأحكام، فينبغي توجيه الدعوة إلى الغرب للدراسات المقارنة بين الأديان، وخاصة بين الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام لمعرفة الفروق الزمنية وقدرات الإنسان العقلية من زمن لآخر، لتحمل تطورات تلك الشرائع التي لم تكن جامدة، ويجب أن لا تكون جامدة، نظرا إلى التغيرات الزمنية والبيئية، لأن هذه الشرائع لها صلة قوية بحياة الإنسان، والحوائج البشرية لن تنقطع إلى

يوم القيامة، لأن كل شيء في دنيانا تتجه نحو الكمال، فلابد من ربط الدين بحياة الإنسان، كما لابد من مقارنة بين دين ودين، وشريعة وشريعة، لأن المقارنة هي السبيل الوحيد لمعرفة ما هو أكمل وأفضل، وكذلك المقارنة تقلل من حدة التوتر بين الشعوب على أساس الدين، فمن أجل تقريب الأمم والشعوب إلى بعضها البعض، ولدعوتها إلى الحب والتآلف والتآزر والتكاتف للخير والحرية والرفاهية للشعوب في عالمنا المعاصر يجب أن تتغير نظراتنا نحو الديانات، لأن هذه الديانات نزلت لإسعاد البشر في حياته قبل مماته، وليس لقتل البشر وإبادة الشعوب والأجيال.وهو تضليل الوعي الغربي قبل أن يكون الهدف هو إيذاء المشاعر وجرح العواطف الدينية للشرق المسلم، فلا حاجة إلى استخدام العنف ضد الغرب، والإنسان الغربي المادي بكونه إنسانا جدير بأن نحترمه، وإنما يجب علاج الفساد المتواجد في نظام فكره المريض، وذلك عن طريق شرح الحقائق، وبيان الخلفية التاريخية للكراهية القائمة بين الشرق والغرب، وإزالتها لتقريب الأمم والشعوب إلى بعضها البعض، ودعوتها إلى الحب والتآلف والتآزر والتكاتف من أجل الخير والحرية والرفاهية للشعوب في عالمنا المعاصر.

كتب للمراجع

(١) سبأ: ٢٨

(٢) الأنبياء: ١٠٧

(٣) إبراهيم زيد الكيلاني: معركة النبوة مع المشركين، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ص: ٧٣-٧٤

(٤) أحمد مجاهد مصباح (دكتور وأستاذ التاريخ والحضارة بجامعة الأزهر بالقاهرة): من حضارة المسلمين، ص:٨١

(٥) أبو جعفر بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار المعارف بمصر، جـــ١١، ص: ٢٩٤

(٦) محمد أركون: نقد العقل الديني، ص: ١٦١- ١٦٥

(٧) ابن هشام: جـــ١، ص: ٧٥- ٧٩

(٨) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، جـــ ١٦، ص:٣٠٣

(٩) عبد المنعم ماجد (دكتور): التاريخ السياسى للدولة العربية، مكتبة الإنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٦٧م، ص: ٩٧- ٩٨

(١٠) ابن خلدون: المقدمة، ص:٧٤

(١١) نيوز ويك): (News Week) عدد: ١٤ مايو، ١٩٨٤م.

(١٢) جمال البنا: الإسلام وحرية الفكر، دار الفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٩م، ص:٧٣-٧٤

(١٣) صلاح الدين محمد شمس الدين (دكتور): الاتجاه الإسلامى في شعر محمد إقبال، الدار السلفية، بومباى، الهند، ١٩٩١م، ص:٣٣-٣٤

(١٤) محمد إقبال (دكتور): ماذا ينبغى أن نعمل يا أمم الشرق، كليات إقبال، الهند، ص: ٤١

(١٥) صلاح الدين محمد شمس الدين (دكتور): الاتجاه الإسلامى في شعر محمد إقبال، – الدر السلفية، بومباى، الهند، ١٩٩١م، ص:٢٩٤-٢٩٥

(١٦) محمد إقبال (دكتور): ديوان جناح جبريل، كليات إقبال، الهند، ص: ٨٧

(١٧) صلاح الدين محمد شمس الدين (دكتور): الأدب المقارن، مطبعة سولو، جاكرتا، إندونيسيا، ٢٠٠٥م، ص: ١٥٨